محاضرة:

قضايا النقد عند الفلاسفة

أ -تمهيد:

تحوّل الشعر و الأدب في العصر العباسي إلى فن وصناعة بعد أن كانا يصدران عن طبع وسليقة، ورأينا الثقافة تّتسع وتشمل فروع المعرفة كلها، لا تقتصر على الثقافة الأدبية و الدينية، و رأينا الثقافات الأجنبية تتدفّق على المملكة الإسلامية من فارسية وهندية ويونانية. و أصبحت كل مجموعة من المعارف تتحول إلى علم حتى اللغة، و الأدب و النحو، و الصرف. و رأينا النقد متّجها اتجاهين أو سائرا على نمطين:

1- نمط منه هو امتداد النقد الجاهلي و الإسلامي مع ما اقتضته البيئة من تحول (أبو عمرو بن العلاء، الأصمعي ، ابن الأعرابي...).

2- نمط آخر وهو النمط العلمي في النقد، نمط تأليف، و وضع كتب لا تتعرض إلا للنقد وما يتصل به.

ومازال هذا شأن النقد العربي حتى تُرجِم كتاب الخطابة لأرسطوطاليس في النصف الثاني من القرن الثالث، وتُرجِم بعده كتاب الشعر، وبذلك ظهرت مادة جديدة في النقد لم تكن معروفة ، مادة فلسفية يونانية لا عهد للعرب بها، وهي مادة لم تكن تعرفها معرفة تامة عامة المثقفين، وإنما يعرفها المتفلسفة، فكان من الضروري أن يظهر من بينهم من يحاول تطبيقها على الشعر، و النثر العربيين، ولم نلبث أن وجدنا " قدامة بن جعفر"، يقوم بهذه المحاولة في دائرة الشعر، من خلال كتابه " نقد الشعر".

وتوالت المؤلفات النقدية التي أنتجها نقاد فلاسفة وتعدّدت القضايا النقدية التي عالجوها في الشعر، و النثر وتبرز هنا العلاقة بين الفلسفة و النقد. فالفلسفة هي علم القوانين العامة للوجود و التفكير الإنساني و عملية المعرفة، ومن صفاتها الشمول، و الوحدة، و التعمّق في التفسير و التعليل، و البحث عن الأسباب القصوى و المبادىء الأولى. أما النقد الأدبي فإنّه فن دراسة الأساليب و تمييزها، وهو منحى من مناحي التفكير الإنساني، متجه نحو الأدب، ابتغاء معرفته و الكشف عن خصائصه، ولما كانت الفلسفة علم قوانين الوجود العامة، و الفكر الإنساني، فإنها تشكّل النقد، وتوجّهه، وقد وُلد النقد عند الفلاسفة، وارتبط بالفلسفة عند اليونان حتى صار فرعا من فروعها. وسنتوقف عند بعض الفلاسفة المسلمين و أهم القضايا التي عالجوها:

1- الفارابي (ت 339ه):

جاء في طبقات الأطباء أن للفارابي كتابا في الخطابة كبيرا في عشرين مجلدا، وكتابا في صناعة الكلام، وكلاما في الشعر و القوافي، غير أنه لم يصلنا شيء من هذا، والذي وصلنا منه رسالة في قوانين صناعة الشعراء و كتاب الشعر، الذي نشره محمد سليم سالم بعنوان جامع الشعر، وما جاء في إحصاء العلوم بشأن الشعر. ومن بين القضايا التي تحدّث فيها الفارابي:

أ -مفهوم الشعر:

يعرّف الفارابي الشعر بأن قوامه و" جوهره عند القدماء هو أن يكون قولا مؤلفا مما يحاكي الأمر و أن يكون مقسوما بأجزاء ينطق بها في أزمنة متساوية، ثم سائر ما فيه فليس ضروري في قوام جوهره و إنما هي أشياء يصير بها أفضل".

غير أن الفارابي في بيئة لا ترى غير الموزون شعرًا، فكان لابد أن يعنى بالأوزان، فنراه في "إحصاء العلوم" يقول بأن " علم الأشعار على الجهة التي تشاكل علم اللسان ثلاثة أجزاء: إحصاء الأوزان المستعملة في أشعارهم، بسيطة كانت الأوزان أو مركبة، ثم إحصاء تركيبات الحروف المعجمة التي تحصل عن صنف منها و وزن من أوزانهم وهي التي تعرف عند العرب بالأسباب و الأوتاد، وعند اليونانيين بالمقاطع و الأرجل، ثم الفحص عن مقادير الأبيات و المصابيح ومن كم حرف ومقطع يتم بيت في وزن ، ثم يميز الأوزان الوافية من الناقصة و أي الأوزان أبهى و أحسن و ألذّ مسموعا.

ب - عنصر المحاكاة: و التخييل هو الذي يسمى المحاكاة، و الأقاويل الشعرية هي التي شأنها أن تؤلف من أشياء محاكية للأمر الذي فيه القول، فإن محاكاة الأمور قد تكون بفعل، كأن يحاكي الانسان بيده شيئا ما مثل أن يعمل تمثالا يحاكي به إنسانا بعينه. وقد تكون بقول كأن يؤلف قولا يضعه أو يخاطب به من أمور تحاكي الشيء الذي فيه القول.

ومادام الشعر يعتمد على المحاكاة فإن المحاكاة و الأشياء التي تتمّ بها تعدّ أهمّ عنصر في الشعر.

ج - بين الشعر و الرسم: الشعر(القول الشعري) يقوم على المحاكاة، وهو في ذلك يشبه الرسم (صناعة التزويق) وليس من اختلاف بينهما إلا في مادة الصناعة، ولكنهما متفقان في صورتها، وأفعالها و أغراضها،و ذلك أن موضع هذه الصناعة الأقاويل، وموضع تلك الصناعة الأصباغ... إلا أن فعليهما جميعا التشبيه (التمثيل) و غرضيهما إيقاع المحكيات في أوهام الناس و حواسهم.

2 -ابن سينا (ت 428 ه):

قام ابن سينا بتلخيص كتاب الشعر، وبدأ بمقدمة ليست من أصل الكتاب يبرز فيها بعض مواقفه النقدية، و التي منها:

أ -تعريف الشعر: يعرف ابن سينا الشعر في مقدمة تلخيصه كتاب الشعر بأنه: " كلام مُخيّلٌ مؤلف من أقوال موزونة متساوية، وعند العرب مقفاة" ثم يشرح هذا التعريف ويدلّ على أن المنطقي لا يهمّه منه إلاّ الحديث عن التخييل، فالكلام المخَيَّل هو الكلام الذي تُذعن له النفس فتنبسط عن أمور وتنقبض عن أمور من غير روية، وفكر واختيار، وبالجملة تنفعل له انفعالا نفسانيّا غير فكري سواء كان المقول مصدّقا به أو غير مصدّق.

ب -الفرق بين الشعر اليوناني والشعر العربي: رأى ابن سينا أن الشعر اليوناني يحاكي الأفعال والأحوال، والشعر العربي يحاكي الذوات. فأنتج اليوناني شعرا موضوعيا (الملحمي و المسرحي)، و أنتج العربي شعرا ذاتيا غنائيا. أما الذي دفع الانسان لقول الشعر فيراه ابن سينا في أمرين:

- استمتاع الانسان بالمحاكاة وقدرته عليها.

- حب الناس للتأليف المتقن والألحان.

ج -المحاكاة والتخيل: قرن ابن سينا المحاكاة بالتخيل، وفهمها على أنها صورة الوجود الخارجي كما تراه المخيلة، وهنا يفيد ابن سينا من بحوث أرسطوطاليس في النفس وقواها، فالمخيلة هي التي تحتفظ بالإحساس الآتي من الخارج، وهي و إن كانت لا تستطيع أن تعيد الإحساس كما هو من غير نقصان، فإنها تستطيع الاختراع و التأليف.

3 ابن رشد (ت 595): لم تعرف الأندلس قبل ابن رشد كتاب الشعر لأرسطو سوى لمحات يسيرة، فرأى ابن رشد أن الكتاب لا يمكن أن يكون ذا جدوى للقارىء العربي إذا هو لم يطبّق ما يمكن تطبيقه من آراء أرسطو على الشعر العربي. فتناول ابن رشد الكتاب ابتغاء تلخيص ما فيه من القوانين الكلية، المشتركة لجميع الأمم. غير أنه لم يقف عند التلخيص، و تأدية أفكار أرسطو كما فهمها، و إنما تعدى إلى تطبيق ما فهم من تلك الأفكار على الشعر العربي.

جعل ابن رشد الشعر قسمين مديح و هجاء وهي القسمة العقلية التي وجدناها عند قدامة بن جعفر من قبل. من منطلق فهمه للتراجيديا و الكوميديا على أنهما المديح والهجاء، وقول أرسطوطاليس أن الشاعر في التراجيديا يصوّر الناس خيرا مما هم عليه، ويقوم بالعكس في الكوميديا. و التخيل عند ابن رشد شرط في الشعر، وهو المحاكاة، وقوامه النغم المتفقة، و الوزن، و التشبيه.

ولما كان الشعر عند ابن رشد إما مدحا أو هجاء، فإن ما يحاكى إما فضائل و إما رذائل. فمن جُبِل على الخير و الفضيلة حاكاها، ومن نازعته نفسه إلى الشر حاكاها.